

الرجل الذي كره الملك

مات يزيد وجنده تحاصر مكة ، وعبد الله بن الزبير يقود معركة الدفاع عنها . .

جاءت الانباء لابن الزبير بما حدث ، فصاح في الجيش الذي يقاتله :

- ان طاغيتكم قد هلك ، فمن شاء منكم ان يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل (أى يبايعونه بالخلافة) ومن كره فليحرق بشأمة . .

وفى الصباح نادى ابن الزبير قائد الامويين الحصين بن نمير يفأوضه ، فدنا منه بفروسه ، وبينما الحيل واقفة والرجلان فوقها يتحدثان ، أقبل حمام يلتقط من الارض تحت الخيل وابن نمير يحذر ان يطأ الحمام بسنابكه . قال له ابن الزبير :

- أتحرك من قتل حمام الحرم وتريد ان تقتل المسلمين . فرد

- لا لا أقاتلك . اذن لنا نطف بالبيت ونصرف عنك . . ففعل ، وانصرف الجيش عائدا الى الشام . وأقبل الناس في الحجاز يبايعون عبد الله بن الزبير

أما في دمشق فقد اختلف الناس ، وعلموا أن معاوية بن يزيد بن معاوية كاره في الخلافة .

وأما في البصرة ، فقد طمع عبيد الله بن زياد في الأمر وطلب البيعة لنفسه حتى تأتية أنباء دمشق بالاتفاق على خليفة .

وتوالى رسل عبد الله بن الزبير على الكوفة وعلى البصرة يطلبون له البيعة ، ووجدوا من يسمع لهم ، وأرسل ابن الزبير من قبله واليا الى مصر ، فطرد واليها الاموي مروان بن الحكم الى الشام .

وكانت دمشق في تلك الفترة تغلي كالمرجل ، ومعاوية الثاني ابن يزيد يرفض ولاية الامر ، وهو بعد رجل عليل مريض . . ولما اشتد الخلاف ذهب الى المسجد ، ودعا الناس وخطب فيهم قائلا :

« اني قد نظرت في أمركم ، فضعفت عنه . فابتغيتم لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع اليه أبوبكر ، فلم أجده ، فابتغيتم لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها . فأنتم أولى بأمركم فاختراروا له من أحببتهم .

ثم دخل منزله ولم يخرج الى الناس حتى مات بعد أربعين يوما من وفاة أبيه . . قيل مات مسموما ، وقيل مات مطعونا . . وهنا نجد عبيد الله بن زياد يهبط دمشق فجأة فيجد بيعة ابن الزبير امتدت حتى وصلت الى الاردن وفلسطين ، ووجد مروان بن الحكم في دمشق يوشك بدوره ان يذهب الى عبد الله ابن الزبير يبايعه .

فظل ابن زياد يقوى من صلب مروان شيخ الامويين حتى رضي أن يكون خليفة .

ومروان هذا هو صاحب عثمان بن عفان ، الذي ثارت الثورة على الخليفة الثالث من أجله . .

ومضى مروان وقد حصل على بيعة من نصف مدينة ، فأخذ يقوى أمره بالحيلة . . وكان جيش الشام قد انقسم عليه نصفه المغربى ضده ونصفه اليمنى معه . .

وفى مرج راهط تقابل جند الشام من الفريقين فى معركة فاز فيها أصحاب مروان . . ثم مضى الى مصر التى طرده منها والى ابن الزبير فاستردها

وبعد ان اطمأن مروان الى هذه الجبهة ، عاد الى الشام لينظر فى أمر العراق ، وأمر الحجاز . .

وكان عبد الله بن الزبير قويا فى مراكزه بالحجاز ، فهزم قوة الامويين .

ولم يطل حكم مروان فقد قتل . . قتلته زوجته ، وكانت من قبله زوجة ليزيد . . أرادت ان تضمن الملك لابنها ، فلما كان الليل وضعت وسادة على وجه زوجها مروان ، وجلست عليها حتى اختنق مروان ومات . .

عبد الملك .. حكيم بني أمية

تولى بعد مروان ، أبنة عبد الملك ، والامويون مكروهون في كل مكان ، ودم الحسين والسبعين من آل بيته الذين ذبحوا في كربلاء يلطخ أيديهم ووجوههم .

ولكن كان من حظ هذا البيت ان تولى أمره في هذا الوقت العصيب عبد الملك بن مروان . فقد كان في كامل قوته وصحته . . . اذ تولى الامر وهو ابن خمسة وأربعين سنة . . ولم يكن مسرفا على نفسه ولا متبذلا شأن يزيد بن معاوية . . ولقد استمر حكمه عشرين سنة وسنة صنع فيها الكثير .

بدأ يصطفى له بطانة من عقول ناصحة ، وافهام ناضجة . . قال لصاحبه « الشعبي » . .

« يا شعبي . . لا تساعدني على ما قبح . ولا ترد على الخطأ في مجلسي (أمام الناس) ، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية (الرد على المجاملات) . ودع عنك كيف أصبح الامير وكيف أمسى . وكلمني بقدر ما أستطعمك (اصغى اليك) واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع مني . واعلم ان صواب الاستماع أكثر من صواب القول . واذا سمعتني أتحدث ، فلا يفوتك منه شيء . وأرني فهمك من طرفك وسمعك . ولا تجهد نفسك في نظرية

صوابي . ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي . فان أسوأ الناس حالا من استكد الملوك بالباطل . وان أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم . وأعلم يا شعبي ان أقل من هذا يذهب بسالف الاحسان ، ويسقط حق الحرمة . فان الصمت في موضعه ، ربما كان أبلغ من المنطق في موضعه . . . »

وانا لنعجب من صمت الشيعة ، والدنيا تموج بالسخط والغضب على الامويين . . .

والواقع ان مصرع الحسين أذهلهم الى حين ، ولكن ما ان مضى عام وبعض عام على هذا الحادث ، حتى جمعوا شملهم في الكوفة . وكان عبد الملك بن مروان قد تولى الامر . . . سير عبد الملك جيشا يقوده عبيد الله بن زياد لقتال جيش الكوفة ، الذي أسمى جنوده أنفسهم « التوابين » لندمهم على قعودهم عن نصره الحسين عندما قدم اليهم .

وهزم التوابون . . . وعادت فلولهم ، لتجد دعوة شيعية جديدة يتزعمها شخص هو من اغمض وأعجب شخصيات التاريخ في هذه الفترة هو المختار بن أبي عبيد الثقفي . . . كان رجلا واسع الاطماع . . . نظر حوله الى الاحزاب المتناحرة . . . اتصل بابن الزبير في الحجاز ولكنه لم يتفق معه . . . ووجد من الأفضل له أن يدعو لخليفة معين من العلويين هو محمد بن الحنفية . . . وأدخل في أتباعه آراء في تقديس الامام ، واستعاروا من الهند تناسخ الأرواح ، ومن المسيحية رجعة الامام ، وذهبوا الى أن محمد بن الحنفية يختفي في جبل رضوى وأنه عائد يوما ليملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا . . .

وصدق كثيرون هذا المذهب ، ونسبوا تعاليمه الى كيسان
مولى على بن أبى طالب ، ولذا أسموا الكيسانية .

مهما يكون الامر ، فقد تلقف المختار وأعوانه التوابين من
أهل الكوفة الذين انهزموا أمام عبيد الله بن زياد ، وضمهم الى
صفوفه ، وكر بهم وبأتباعه مرة أخرى على جيش الشام بقيادة
أحد قواده هو ابراهيم بن الاشتهر . .

ومن عجب ان الحماسة تملكت هذا الجيش الذى حسب انه
مسير بأوامر ألوية . . فوثبوا على عبيد الله بن زياد وجيش
الشام ، وهناك عند نهر الخازر فى شمال العراق ، دارت
معركة رهيبة هزم فيها ابن زياد وقتل ، وهلك معه عدد كبير
من زعماء الجيش الأموى .

وقوى نفوذ المختار . . ووقف شامخا بين خليفتين : واحد
فى الشام هو عبد الملك بن مروان ، وآخر فى الحجاز هو
عبد الله بن الزبير .

وكان ابن الزبير شديد الضيق ، من هذا « المختار » الذى
حشر نفسه فى المعركة الكبرى .

وكان ابن الزبير قد أعد جيشا كبيرا لقتال الامويين ولحماية
الحجاز بقيادة أخيه مصعب وبدلا من أن يأمره بالمسير الى الشام ،
أمره بالمسير الى العراق لمناجزة المختار .

وبالقرب من الكوفة دارت معركة رهيبة قتل فيها المختار ،
وانتصر الزبيران ، وهلك من « التوابين » سبعة آلاف . .
وأصبح ابن الزبير سيد الكوفة ، وسيد الحجاز .

ماذا صنع عبد الملك بن مروان فى هذا الوقت ، يروى

المسعودي ان عبد الملك كان ينتظر في « طنان » نتيجة المعركة بين جيشه بقيادة ابن زياد ، وجيش المختار . فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل . وأتاه في تلك الليلة مقتل جيش ابن دلجة . وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير . ثم جاءه خبر دخول بابل بن ميثن فلسطين من قبل ابن الزبير . . . ومسير مصعب ابن الزبير من المدينة الى فلسطين . . . ثم جاءه مسير ملك الروم ، ونزوله المصيصة يريد الشام . ثم جاءه خبر دمشق ، وان عبيدها وأوباشها ودعارها خرجوا على أهلها ، ونزلوا الجبل . ثم أتاه ان من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة . وان خيل الاعراب اغارات على حمص وبعليك والبقاع . . . وغير ذلك مما جاءه من الاحداث في تلك الليلة .

يروى المسعودي : فلم ير عبد الملك في ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أبسط لساناً ، ولا أثبت جناحاً منه تلك الليلة ، تجلداً وسياسة للملوك . فترك اظهار الفشل ، وبعث بأموال وهدايا الى ملك الروم ، فشغله وهادنه ، وسار الى فلسطين وعند اجنادين هزم جيش ابن الزبير . . . وفي عام ٧٢ هـ سار مصعب ابن الزبير في جيش العراق يريد اخضاع الشام ، وتحرك عبد الملك بن مروان في جيش من أهل الشام وأهل مصر . وعلى شاطئ دجلة دارت معركة رهيبة قتل فيها مصعب واحتزت رأسه .

دار الرؤوس

يروى المسعودي عن أبي مسلم النخعي قال : رأى عبد الملك

منى اضطرابا ، فسألنى فقلت :

- أيا أمير المؤمنين . . دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين
بين يدي ابن زياد فى هذا الموضع . ثم دخلتها فرأيت رأس
ابن زياد بين يدي المختار فيه . ثم دخلتها فرأيت رأس المختار
بين يدي مصعب بن الزبير . . وهذا رأس مصعب بين يديك
. . فوقاك الله يا أمير المؤمنين . .

قال : فوثب عبد الملك بن مروان وأمر بهدم الطاق الذى
على المجلس !!

وتلقى عبد الملك بيعة أهل الكوفة

أما معسكر الحجاز ، فكان الموقف فيه عصيبا . جاءت الانباء
بمصرع مصعب ، فكتمه عبد الله بن الزبير حينما حتى تحدث
به الناس ، ثم صعد المنبر يرثى أخاه . . وكأنما يرثى
نفسه .

وأرسل عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان ههنا
أول ظهوره فى عالم السياسة والحرب . . أرسله ليفرغ من
أمر الحجاز ومن أمر عبد الله بن الزبير .
وحول مكة عسكر جيش الحجاج ، وحاصرها ، وكان ذلك
سنة اثنين وسبعين من الهجرة .

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وهى
على ما يصفها المسعودى بلغت مئة سنة لم تقع لها سن ، ولا
أبيض لها شعر . . قال عبد الله لأمه :

- يا أمه كيف تجدينك ؟ قالت :

- انى لشاكية يا بنى . قال لها :

- ان فى الموت راحة . . قالت :

- لعلك تتمناه لى . وما أحب ان أموت حتى يأتى على أحد
طرفيك : اما قتلت فأحتسبك . واما ظفرت فقرت عينى بك
ودارت معركة بين الجيشين ، هزم فيها ابن الزبير وقتل ،
وأمر الحجاج به فصلب بمكة ، وكان ذلك سنة ٧٣ للهجرة .
وكلمت اسماء الحجاج فى دفنه فأبى عليها .

الحجاج . . أى الرجال هو ؟

وظل الحجاج واليا على الحجاز واليمن من قبل عبد الملك بن مروان ثلاث سنوات ، أقر فيها الأمر للأمويين كما كان فى أيام معاوية .

وهكذا نرى عبد الملك قد أمن جانب الجبهة المعارضة . التى تحصن فيها الزبيرون . . وما كانت لهم حجة فى طلب الملك من الأمويين الا استثمار حالة السخط التى عمت الناس عقب استشهاد الحسين والسبعين من آل بيته . . وفتور الدعوة الشيعية ، لوقت قصير . .

ويمكن ان نستعير تعبيرا شاع فى ذلك العهد ، وهو ان الحجاز وبعض العراق وبعض مصر ساندت عبد الله بن الزبير ، لا حبا فيه ، ولكن كرها لبني أمية .

فلما ظهرت دعوة شيعية جديدة تزعمها المختار ، وتمكنت من قتل ابن زياد وأمرأء جيشه تحولت لها قلوب الناس وانفضت من حول ابن الزبير فكانت نهايته .

والآن ، وقد اطمأن خليفة الأمويين القادر عبد الملك بن مروان الى سكون الحجاز ، ترى هل دأبت له الدنيا ؟

لا . . فان العراق كانت تغلى مراجله . فان الشيعة فى جانب كانوا يموجون بالسخط والغضب . كما أن الخوارج من جانب آخر كان أمرهم قد غلظ ، وساعدهم اشتد ، وتجمع حولهم كثير من المسلمين فى البصرة وشمال العراق .

وخشى أهل البصرة خطر هذا الفريق المتعصب من المسلمين ،
الذى كان خطأ عليا ، وخطأ معاوية فيما مضى ، والذى كان من
بين خناجرهم خنجر قضى على أمير المؤمنين على . . ولهذا اجتمعوا
حول رجل من الأفضأذ فيهم هو المهلب بن أبي صفرة ، وطالبوه
بأن يجمع منهم جيشا يصد عنهم خطر الخوارج ، حتى تسلم
البصرة من عنفهم وقسوتهم فى معاملتهم لمن خالف رأيهم .

وكان الخوارج فرقا ، وكان من نصيب المهلب أن يقاوم
أشدهم شكيمة وهو قطرى بن الفجاءة . .

واستراح الخليفة لهذه الانتفاضة من البصرة ، وهذه العزيمة
من المهلب فى قتال الخوارج . . ولقد وصفه الخليفة عبد الملك
بقوله : « هو الميمون النقية ، المقاسى للحرب ، ابنها ، وابن
أبنائها »

ولكن جبهات القتال ضد الخوارج تعددت . وزعماءهم
كثروا . . ونظر عبد الملك بن مروان ، فلم يجد فى جعبته رجلا
أصلب من هذا الشاب الذى كفاه أمر الحجاز ، وهو الحجاج . .
فولاه أمر العراق .

وكان الحجاج يعلم الكثير عن أهل العراق ، ويرى فى النظريات
التي بثها الخوارج بينهم خطرا كبيرا يهدد كيان الخلافة كلها . .
فقد كانوا يطالبون بأن يكون الخليفة منتخبا من بين العرب
جميعا ، دون النظر الى عصبية ، أو وراثة من أى نوع . وان
من يقع عليه اختيار الأئمة ، لا ينبغي له أن ينزل عن هذا الحق
الا اذا جار وبغى فى الأرض ، وعندها يعزل او يقتل !!

لقد وجد كثير من أهل العراق فى هذه الآراء ، راحة لهم
من عناء البيوت المتاخمة : بيوت هاشم وأمية وغيرهما .

ولكن العراقيين لم يكونوا رجلا واحدا في اعتناق هذه المبادئ . فما تزال في نفوس فرقة كبيرة منها رواسب كبيرة موالية للعلويين ، نادمة على خذلانهم لعلی ، وللعسین بن علی . كان الحجاج في دمشق عندما طالب هو بنفسه ولاية العراق وألح في الطلب . فلما فاز بغرضه ، أمده الخليفة بجيش سار فيه حتى وصل الى القادسية فترك الجيش وراءه يستريح ، ودعا بحمل جلس عليه بغير خشبة ولا وكاء . وأخذ كتاب التولية بيده ، ولبس ثياب السفر ، وتعمم بعمامة كبيرة ، وضرب راحلته حتى دخل الكوفة وحده ، وطاف في شوارعها ينادي : الصلاة جامعة

يروى المسعودي أن زعماء الكوفة تجمعوا ، كل واحد منهم حوله العشرون والثلاثون من أتباعه ومواليه . وصعد الحجاج المنبر وعمامته تغطي معظم وجهه ، وقوسه فوق ظهره ، وابهامه فوق فمه . . وظل صامتا ، حتى سمع همهمة من أركان المسجد والناس يقول بعضهم لبعض : قوموا حتى نخصبه (نرميه بالحصى) . . وأخذوا يتندرون عليه ، ويصفه واحد بأنه اعرابي فقد حجته ، والثاني بأنه رجل حصر فما يقدر على الكلام . . فلما طال الوقت ، واشتد الزحام . نهض الحجاج واقفا ونحى العمامة عن رأسه وحسر اللثام عن وجهه وقال في صوت مجلجل دون أن يحمد الله أو يثنى عليه :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ثم خطب خطبته المشهورة التي لاحت له فيها أعناق

متطاولة ، ورؤوسا قد أينعت وحن قاطفها حتى قال : واني
أنا صاحبها ، وكأني أنظر الى الدماء ترقرق بين العمائم
واللحي ..

وأخطرهم بانه أصبح أميرهم بقوله :
« ان أمير المؤمنين شركنانتته ، فوجدني أمرها طعما واحدها
سنانا ، وأقواها قداحا ، فان تستقيموا تستقيم لكم الأمور ،
وان تأخذوا الى بثنيات الطريق ، تجدوني لكل مرصد مرصدا ،
والله لا أقيّل لكم عشرة . ولا أقبّل منكم عذرة »

وبعد ان وصف أهل العراق بانهم أهل الشقاق والنفاق
ومساوىء الاخلاق ، تهددهم بعذاب شديد وضرب أليم كما
تضرب الابل الغربية ، في وسط القطيع .

وأخطرهم باسمه في وسط عاصفة من الشتائم .. وهو
يقول : طالما سعيتم في الضلالة ، وسلكتم سبيل الغواية ،
وسننتم سنن السوء ، وتماديتم في الجهالة .. يا عبيد العصا
وأولاد الاماء . انا الحجاج بن يوسف .. أنا والله لا أعد الا
وفيت .. وأحلف الا بررت ..

وبحث في القرآن ، فانتقى منه آية ترمجر بالغضب قذفها
في وجوههم .. قال لهم :

« يا أهل العراق . انما مثلكم كما قال الله عز وجل « كمثل
قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان
فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » .

فأسرعوا وأقيموا ، واعتدلوا ولا تميلوا . وشايعوا
وبايعوا »

وقال : انما هو انقضاء السيف ، ثم لا أغمده في شتاء ولا صيف ، حتى يقيم الله لأمر المؤمنين أودكم ، ويذل به صعبكم .

« ألا أن أمير المؤمنين أمرني باعطائكم ، وأستخاصكم الى محاربة عدوكم (الخوارج) مع المهلب (بن ابي صفرة) . وقد أمرتكم بذلك . وأجلت لكم ثلاثا واعطيت الله عهدا يؤاخذني به ، ويستوفيه مني ، الا أجد أحدا من بعث المهلب بعدها ، ألا ضربت عنقه وانتهيت ماله .. »

ثم صاح بغلامه :
اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ..

وبدأ الغلام يقرأ أول الكتاب وهو : سلام عليكم . فأنى أحمد الله اليكم ..

وهنا صاح الحجاج مرة ثانية : اسكت يا غلام .. وزمجر في وجه أهل الكوفة مغضبا :
يا أهل العراق والنفاق والشقاق ومساوى الاخلاق . يا أهل الفرقة والضلال .. يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام ! اما والله لئن بقيت لكم لألحونكم لحوالعود . ولاؤدبنكم أدبا غير هذا الادب .. هذا أدب ابن سمية (يقصد زيادا) وهو صاحب شرطة كان بالعراق !!

وصاح بالغلام أن يقرأ الكتاب من جديد .. فلما بلغ السلام رد أهل المسجد جميعا : وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته .

وبعد ثلاثة أيام كان الناس قد تجمعوا لامداد المهلب ، وكان يحارب الازارقة احادي فرق الخوارج بمهرجان ..

وتقدم منه رجل شيخ طلب اعفائه من المسير وأن يأخذ مكانه شباب من أبنائه .. ورضى الحجاج ولكن واحدا همس في أذن الحجاج ، ان هذا الشيخ هو عمير ابن ضابئ البرجمي أجد قتلة عثمان !!

وهنا تغير وجه الحجاج ، وراح يصعد بصره في الرجل ويطوف حوله ، وهو يعبت بلحيته حتى اذا أخذ نصيبه من الطواف حول هذا الرجل قال له :

- يا عمير .. سمعت مقالتي على المنبر ؟ قال الشيخ :

- نعم .. قال الحجاج :

- والله انه لقبيح بمثل أن يكون كذابا .. تمم يا غلام

فاضرب عنقه

فلما تهاوت هذه الرأس على الارض ، كان جيش الكوفة يشب كله فوق ظهور الخيل والابل ، وهو يغذ السير لمعونة المهلب . وبلغ من ازدحامهم على الفرات ، ان الناس كانوا يسقطون من فوق الجسر . فأمر أن يمد جسر آخر يعبر عليه الناس .

أغرب الحروب

إذا كانت حروب تلك الفترة ، تجد لها اسبابها ، من طمع في ملك ، أو تأييد لعقيدة ، أو غزوة تفتح بها أرض جديدة ، فإن حرب « دير الجماجم » هي أغرب حروب هذا العصر ، لأنها فقدت كل باعث و حار فيها القدماء ، كما حار المحدثون . يقول الطبري في حوادث سنة ٨٠ للهجرة ان الحجاج وجه عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الى سجستان لحرب « رتبيل » صاحب الترك . وقد اختلف أهل السير في سبب توجيهه اياه اليها ، وأين كان عبد الرحمن يوم ولاء الحجاج سجستان . .

ويمضي الطبري فيروى قصة يشبت بها انه لم يكن هناك شخص يكرهه الحجاج مثلما يكره ابن الاشعث ، حتى ان الحجاج قال عنه مرة وهو يدخل عليه انه كلما نظر الى مشيته هم بضرب عنقه . . وروى شيء كهذا عن ابن الاشعث الذي أقسم الا يدخر جهدا في سبيل ازالة الحجاج عن سلطانه !

ومع هذا ، فقد ولي الحجاج هذا الرجل الذي يكرهه ثغرا من الثغور الهامة ، كله قلاقل ، وكله حروب . وأمدّه بجيش قوى . . ولما وصل الى مقر امارته جاءته الرسل من « رتبيل » أمير الترك بأنه يريد المهادنة . فلم يرض ابن الاشعث . وظل يهاجم البلاد ، وعدوه يتخلى منسحبا ، تاركاً الأرض وراءه ، دون ان تحدث معركة ، ودون أن يصل ابن الاشعث الى القلاع والمدن . وكتب للحجاج يخبره بما فعل . فرد الحجاج يعنفه

ويلومه أعظم اللوم ، ويصفه بأنه امرؤ - يحب الهدنة ويستريح
الى الموائد ، ويصنع عددا قليلا ذليلا * وأمره بأن يمضى
فى الزحف ويهدم الحصون ، ويدمر الجيوش المعادية .

ولم يرض ابن الأشعث بتنفيذ هذا الامر ، وجمع أمراء
الجيش ، وقال لهم ان الحجاج ما يبالي أن يخاطر بكم ، فيقتحمكم
بلادا صعبة ، فان ظفرتكم أكل البلاد وحاز المال ، وزاد
سلطانة * وان ظفر عدوكم ، كنتم أنتم الاعداء الذى لا يبالي
عنتهم ، ولا يبقى عليهم ...

ثم طلب منهم أن يخلعوا « عدو الله الحجاج » وبايعه الناس
بالامارة ، وخلعوا الحجاج .

ووصلت الانباء الى الحجاج بما حدث وطلب منه مددا .
ووصلت الانباء الى المهلب فى امارته بسجستان ، فكتب الى
ابن الأشعث ينصحه بالدخول فى الجماعة ، والا ينسكت
بيعته ..

وكان المهلب أريبا فطنا ، فكتب الى الحجاج يحذره بقوله :
« ان أهل العراق قد أقبلوا اليك وهم مثل السيل المنحدر من
على ليس بشيء يردده حتى ينتهى الى قراره * »

وهذه الرسالة تعبر لنا عن شدة ما كان يعانيه أهل العراق
من موجدة على الحجاج ، وعلى حكم الامويين * وقدلنا على مدى
سخطهم من دفعهم الى الحدود الاسلامية ، وبهم شوق الى
أولادهم ونسائهم .

وهذه روح تخالف تلك الروح التي سادت العرب أيام أبي بكر وعمر والراشدين جميعا ، من تفضيل الغزو والجهاد على الركون الى البيوت وراحتها

أقام الحجاج بالبصرة وأخذت الامداد تأتيه من الشام ، فلما كمل له جيش جديد ، خرج به ليلقى ابن الاشعث ، الذي قربت مقدمته وزارت قوته بما انضم اليها من العراقيين في كل أرض يمر بها .

وفي معسكرين متقابلين . . معسكر للحجاج بدير قسرة ، وآخر لابن الاشعث في دير الجماجم ، أخذ الجيشان يتحفران بعد حروب الاستطلاع الاولى

يقول الطبرى عن جيش العراقيين : « جميعهم على حرب الحجاج بغضهم وكراهيتهم له . وهم اذ ذاك منه ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء (الجنود النظاميون) ومعهم مثلهم ممن والاهم »

وفكر الخليفة عبد الملك بن مروان في هذه الحرب مرتين . . ورأى أن يحسمها سلما اذا استطاع . وما دامت رغبة جيش العراق الشائر ، أن يعزل الحجاج عن حكمه ، فليعزل الحجاج على أن يدخلوا في الطاعة . . وبعث رسلا تفاوض

وباغ الحجاج هذا الامر ، فما كان - كما في رواية الطبرى - أمر قط أشد عليه ، ولا أغبط له ، ولا أوجع لقلبه منه ، مخافة أن يقبل ابن الاشعث هذا العرض ، فيعزل هو . .

ولهذا كتب الحجاج الى عبد الملك يشيه عن هذا السرأى ،
ويقول له : « والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى ، لا يلبثون
الا قليلا حتى يخالفوك ويسمروا اليك ، ولا يزيدهم ذلك
الا جرأة عليك .. وختم رسالته بجملة مأثورة ، وهى « ان
الحديد بالحديد يفلح » !

ولكن الخليفة عبد الملك - مع هذا - رغب فى أن ينهى
الفتنة تماما . فبعث رساله من امرائه وأقاربه يفاوضون ابن
الاشعث وجنده . وقبل ابن الاشعث ما عرض عليه ، ولكن
زعماء الجيش رفضوه فقد حسبوا « ان الله أهلكهم فأصبحوا
فى الذل والضمناك والمجاعة .. ونحن ذوو العدد الكثير والسعر
الرفيع والمادة القريبة .. لا والله لانفعل »

ودارت الحرب فى دير الجماجم ، وانهزم العراقيون بعد
قتال مرير :

وصباح الحجاج فى جنده « اترلوهم فليتبددوا ، ولا
تتبعوهم » ونادى المنادى من رجع ، فهو امن

وتفرق جيش العراق ، فقد كانت نقطة ضعفه ان جنده كانوا
قريبين من بيوتهم .. وان الزهو ركبهم ، فلم يحسبوا حسابا
لصلابة جند الشام ، ولا لحيل الحجاج وحسن بلائه ..

وتراجع ابن الاشعث من دير الجماجم الى مسكن ، مع
قلول جيشه .

وسار وراءه الحجاج متخذاً طريق المدائن ، وأوفد عبد الملك
ابن المهلب مع مبدد قوى جيش الحجاج ، وبعد قتال شديد

استبصر أيام هزم ابن الاشعث مرة أخرى ، وانسحب الى سجستان ، فتبعته قوة من جيش الحجاج .

والفرار بعد هذا طويل ، والهزيمة مرة . . قال واحد لابن الاشعث في رحلته الطويلة مع بعض انصاره قاصدا أرض « رتبيل » الذي بعث أول الامر كي يحاربه . قال هذا العربي لابن الاشعث :

- يا ابن الاشعث . بلغنا عنك انك كنت جباناً . فرد :

- والله ما جبننت . والله لقد دلفت الرجال بالرجال . ولقفت الخيل بالخيال ، ولقد قاتلت فارساً ، وقاتلت راحلاً ، وما انهزمت ، ولا تركت الساحة للقوم في موطن حتى لا أجده مقاتلاً ، ولا أرى معي مقاتلاً . . ولكنني زاولت ملكاً مؤجلاً !

ولقد بلغت وقائع ابن الاشعث ضد الحجاج وسليطان دمشق ثمانين واقعة قبل ان تستنفد قوته . .

وكان أسرى هذه المعارك يساقون الى الحجاج لينظر في أمرهم

كان من زعماء الشوار عامر الشعبي ، سأل عنه الحجاج فقليل انه في جوار عاملة بالري ، فطلب استقدامه ، ولما حضر قال للحجاج

- أيها الأمير . ان الناس قد أمروني ان أعتذر اليك بغير ما يعلم الله أنه الحق ، وإيم الله لا أقول في هذا المقام الا حقاً . قد والله سددنا عليك ، وحرصنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا . فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة ، ولقد

نصرك الله علينا ، وظفرك بنا فان سطوت فيذنوبنا ، وما جرت
اليه أيدينا ، وان عفوت عنا فبحلمك . وبعد . . الحجة لك علينا

فرد الحجاج :

- أنت والله أحب الى قولا ممن يدخل علينا يقطر
سيفه من دمائنا ، ثم يقول : ما فعلت ، ولا شهدت . قد
أمنت عندنا يا شعبي . .

وانصرف الشعبي . . فلما مشى قليلا ناداه الحجاج قائلا :
- هلم يا شعبي . .

فوجل قلب الرجل ، ولكنه تذكر أمانه ، فعاد . . وسأله
كيف وجد الناس بعد خلافه . . فذكر له الشعبي كلاما انجاء
مرة ثانية يصف فيه الخوف وفقدان الصحبة الطيبة . . فسمح
له بأن ينصرف .

وكان ممن أعدمه الحجاج جزاء خروجه عليه الشاعرا
المعروف أعشى همدان

وجاء دور ابن الأشعث . . فقد ثابر الحجاج على الكتابة الى
« رتبيل » يطلب تسليم هذا اللاجيء ، وبعث اليه من يفاوضه ،
في سلم يدوم سنين معدودة . . وفي رفع الخراج عنه . .

قيل ، وكانت بابن الأشعث علة ، فمات واحتز « رتبيل »
رأسه ، وأرسلها للحجاج ، مع من بقي من أهله

وهكذا انتهت هذه الانتفاضة « العراقية » الكبرى على

حكم الامويين ، وكانت سنواتها من أزهب سنوات الكفاح
من أجل الملك . وضحاياها من أكثر الضحايا عددا . .

وقد رغب الخليفة عبد الملك بن مروان في أن يهدى
الحجاج من عنفه ضد العراقيين فكتب اليه :

.. بلغ أمير المؤمنين شرفك في الدماء ، وتبذيرك في
الاموال . ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الحصلتين لاحد من
الناس . . وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء الدية . . .
وفي العمدة القود . وفي الاموال ردها الى مواضعها ، ثم
العمل فيها برأيه .

« فانما أمير المؤمنين أمين الله . وسيان عنده منع حق ،
واعطاء باطل . فان كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك .
وان كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم . وسيأتيك من أمير
المؤمنين أمران : لين وشدة فلا يؤنسك الا الطاعة ولا يوحشك
الا المعصية . وظن بأمر المؤمنين كل شيء الا احتمالك على الخطأ .
واذا أعطاك الظفر على قوم ، فلا تقتلني جاني ولا أسيرا »

ورد الحجاج ردا فيه مهارة وكياسة قال :

.. أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى في الدماء ،
وتبذيرى في الاموال . ولعمري ما بلغت في عقوبتي أهل
المعصية ما هم أهل . وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه
فان كان قتل أولئك العصاة سرف ، واعطائي أولئك المطيعين
تبذيرا ، فليس علي أمير المؤمنين ما سلف . وليمد لي فيه حدا

انتهى اليه انشاء الله تعالى ولا قوة الا بالله . والله ما على من
الرفيع والمادة القريبة . . لا والله لا نفعل ،

عقل ولا قود . . ما أصابت القوم خطأ فأفديه . ولا أعطيتهم الا
لك ، ولا قتلت الا فيك وأما ما أنا منتظره من أمريك ، فأليينهما
عادة ، وأعظمهما محنة . فقد عبأت للعدة الجلاذ ، وللمعنسة
الصبر . . »

هذا الخليفة

ولقد أطلعنا بعض الشيء في ذكر الاحداث السكبيرة التي
وقعت أيام عبد الملك بن مروان ، لنعطي للقراء فكرة واضحة
عن الصددوع الكثيرة التي خلفتها ثلاثة أعوام من حكم أخرق ،
هو حكم يزيد بن معاوية . . فان عشرين عاما وعاما أنفقها
عبد الملك بن مروان ، في درأ الاخطار عن دولة . . معظمها
أخطار داخلية

وكان من حسن حظه أن ظهر في عهده عدد من الرجال
ذوى الكفاءة الادارية والحزم والصبر على المكاره . وهى بعض
صفات عبد الملك نفسه . منهم بيت المهلب بن أبى صفرة .
ومنهم الحجاج . .

ولقد قيل الشيء الكثير في ذم الحجاج . . ولكن بعض ما
ذكر عنه إنما كان على سبيل النقمة من عهد الامويين كله . .
وقد زاد العلويون فيما قيل ، وكذلك فعل الشيعة . حتى ان
المسعودى صاحب مروج الذهب يقول :

« مات الحجاج في سنة ٩٥ وهو ابن ٥٤ سنة بواسط
في العراق . وكان تأمره على الناس عشرين سنة . وأحصى من
قتله صبرا سوى من قتل في عساكره وحروبه . فوجد ١٢٠
ألفا . ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف
امراة . منهم ستة عشر ألفا مجردة !! وكان يحبس النساء
والرجال في موضع واحد . ولم يكن للحبس ستر يستتر
الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء »

وقد أدت كثرة الحروب . وحاجتها للمال الى أن عاد الحجاج
الى سياسة منبوذة ، وهي أن يدفع الموالى (المسلمون من غير
العرب) الضرائب كما يدفعها الكفار . . . ووجهه للحجاج نقد
كثير من أجل هذه السياسة ، وظهرت نتائجها بعد حين ، عند
ما بدأ أبو مسلم الخراساني يعد لشورة عمادها الموالى ضد
الحكم الاموى .

ومات الحجاج في عهد الوليد بن عبد الملك . ولم يوجد في
خزينته غير مصحف ، وحفنه صغيرة من النقود الفضية . .

أما عبد الملك ، ألمع خلفاء بني أمية ، بعد معاوية . فقد
ظفر بعناية كبيرة من المؤرخين . . . كان فصيحا ذكيا أثر عنه
قوله : شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن . وروى عنه
قوله في بياض شعره : « وكيف لا . وأنا أعرض عقلي على الناس
كل جمعة » عندما كان يصلى بالناس الجمعة ويخطبهم

وقبل وفاته دعا الناس الى البيعة لولديه : الوليد ، ثم
سليمان . فبايع الناس الا المحدث العالم سعيد بن المسيب

وكان بالمدينة . . وقد ضربه والى المدينة ضربا مبرحا وحبسه
فلما بلغ عبد الملك ما حدث لام واليه وقال : انما كان ينبغي
أن يدعوه الى البيعة ، فان أبى يضرب عنقه ، أو يكف عنه . .

كما كان من ضحايا تلك الايام سعيد بن جبير العالم
الفاضل والمحدث الجليل . . ظفر به الحجاج وسأله :

- ما اسمك قال

- سعيد بن جبير . فرد الحجاج :

- بل شقى بن كسير !! قال

- ابي كان أعلم باسمي منك . رد الحجاج

- لقد شقيت وشقى أبوك . قال

- الغيب انما يعمله غيرك . رد الحجاج

- لأبدلك بالدنيا نارا تلظى . قال

- لو علمت ان ذلك بيدك ، ما اتخذت لها غيرك ! رد الحجاج

- فما قولك فى الخلفاء قال :

- لست عليهم بوكيل . قال الحجاج

- فاختر أى قتلة تريد ان أقتلك . قال سعيد

- بل اختر يا شقى لنفسك . فوالله ما تقتلنى اليوم بقتلة

الا قتلتك فى الآخرة بمثلها

فأمر به الحجاج فأخرج ليقتل . فمضى سعيد يضحك
فردده الحجاج وسأله عن ضحكك فقال :

عجبت من جرأتك على الله ، وحلم الله عنك .

وأمر به الحجاج أن يذبح ، فلما انكفأ على وجهه قال :

- أشهد ألا اله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا

عبده ورسوله . وإن الحجاج ، غير مؤمن بأئله . . اللهم لا

تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدى

ولم يعيش الحجاج بعده إلا خمس عشرة ليلة . . ويروى أنه

كان يقول بعد قتل سعيد :

« يا قوم . مالى ولسعيد بن جبير . كلما عزمتم على النوم

أخذ بعلقى »

وفاة عبد الملك

دخل الوليد على أبيه وهو فى مرض الموت ، فبكى وتلفت

عبد الملك فوجد ابنه وولى عهده يبكى فقال له :

- يا هذا . . أحنين الحمامة ؟ إذا أنا مت فشمر واتزر . .

وألبس جلد نمر وضع سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات

نفسه لك فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه .

وكان عبد الملك فصيحا ، وقد أدركته صحوة الموت فسمع

وهو يقول : ان طويلك يا دنيا قصير وان كثيرك لقليل ، وان كنا
منك لفي غرور .

وأوصى بنيه وقد تجمعوا حوله فقال لهم : « أوصيكم بتقوى
الله ، فانها عصمة باقية ، وجنة واقية فالتقوى خير زاد ،
وأفضل في الميعاد ، وهي أحسن كهف » . وليعطف الكبير منكم
على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير مع سلامة الصدور ،
وأخذ بجميل الأمور ، وإياكم والتحاسد ، فيه هلك الماضون
وذوو العزم المكين » .

ثم أوصاهم أن يلتفوا حول أخيهم الوليد ، وأن يكرموا
الحجاج « فانه الذي وطأ لكم هذا الأمر » .

وسأله بعض شيوخ بني أمية :

— كيف نجدك يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

— كما قال الله عز وجل : ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم
أول مرة ، وتركتكم ما خولناكم وراء ظهوركم . . فكان هذا آخر
كلام سمع منه .

عشرة أعوام سمان ..

بيعة الجماعة

كان لابد للأمة أن تستريح بعد كل هذا الاجتهاد الذي أصابها منذ تولى معاوية حتى مات عبد الملك بن مروان .
انها فترة استغرقت أربعاً وأربعين عاماً مضت منذ انتهى عهد الخلفاء الراشدين لم يدخل السيف في غمده ولم تنته من أنحاء الدولة الفتن والقلاقل .

ولو ان عبد الملك جلس على العرش ، والبلاد هادئة ساكنة لا يمكن أن يصنع للناس خيراً كثيراً .

الا أن ابنه الوليد ورث عنه رجاحة عقله ، مع سخاء في اليد وسماحة في الطبع لم تكن أظهر صفات أبيه . . ودام حكمه عشرة أعوام نشطت فيها الفتوح كما لم تنشط من قبل .

كان الوليد شاباً حين تولى الخلافة ، لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره ، ومع هذا فقد انجب أربعة عشر ولداً ذكراً .
وكانت زوجته وبنت عمه ، أم البنين ، بنت عبد العزيز من ألمع نساء عصرها .

صعد الوليد الى المنبر ، بعد أن أسلم أبوه الروح ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « لم أر مثلاً مصيبة ، ولا مثلاً نعمة ، فقدت الخليفة ، ونقلت الخلافة ، فانا لله وانا اليه راجعون على المصيبة ، والحمد لله على النعمة . »

ثم دعا الناس الى بيعته فبايعوا ، لم يختلف عليه أحد .
ويمكن بحق أن يسمى هذا بالاجماع ، فالوليد كان أول خليفة
بعد عمر بن الخطاب ، لم يختلف على ولايته أحد . . لا لأن
الجميع كانوا أمويين أو من أنصار بني أمية ، ولكن لأن ربح
المعارضة خفتت ، والناس من فرط الحروب الداخلية وبلائها
أجهدوا اجهادا عظيما .

• • التي غلبت الحجاج

روى المسعودي أن الحجاج وقد على الوليد أول ولايته فوجده
في بعض نزهه ، فاستقبله ، فلما رآه ترجل له وقبل يده ،
وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية ، قال له الوليد :
- اركب يا أبا محمد . . رد الحجاج :
- دعني يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ، فان ابن الزبير
وابن الأشعث شغلاني عنك .

فعزم عليه الوليد حتى ركب ، ودخل الوليد داره ولبس
عباءة رقيقة ، ثم أذن للحجاج فدخل عليه في حاله تلك ،
وأطال الجلوس عنده . . فبينما هو يحادثه ، اذ جاءت جارية
فسارت الى الوليد ومضت ، ثم عادت فسارت ثم انصرفت ،
فقال الوليد للحجاج :

- أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد . . قال الحجاج :

- لا والله . . قال الوليد :

- بعثتها الى ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول :
« ما مجالستك لهذا الاعرابي المتسلح في السلاح وأنت في

غلاله ، فأرسلت إليها انه الحجاج ، فراعها ذلك ، وقالت :
والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق ، فقال الحجاج يعلق
على هذه الرسالة :

- دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فانما المرأة ريحانة ،
وليست بقهرمانه ، فلا تطالعهن على شرك ، ولا مكايدة عدوك ،
ولا تطعهن فى غير أنفسهن ، ولا تشغلن بأكثر من زينتهن ،
واياك ومشاورتهن فى الأمور ، فان رأيهن الى أفن ، وعزمهن
الى وهن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تملك
الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ولا تطمعها أن تشفع
عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن ، فان ذلك أوفر لعقلك ،
وأبين لفضلك !!

ثم نهض الحجاج فخرج .
ودخل الوليد على زوجته أم البنين ، فأخبرها بمقالة الحجاج
فقالت :

- يا أمير المؤمنين أحب أن تأمره غدا بالتسليم على فقال :

- سأفعل .

فلما غدا الحجاج على الوليد قال له :

- يا أبا محمد ، سر الى أم البنين فسلم عليها ، فقال الحجاج :

- اعفنى من ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال :

- لا بد من ذلك .

فمضى الحجاج إليها ، فحجبتة طويلا ، ثم أذنت له ، فأمرته

قائما ، ولم تأذن له فى الجلوس ، ثم قالت :

- ايه يا حجاج .. انت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن

الزبير ، وابن الأشعث !! اما والله لولا ان الله جمعك أهون خلقه
لما ابتلاك برمي الكعبة ، ولا بقتل بنت ابن ذات النطاقين . .
وأول مولود ولد في الاسلام (عبد الله بن الزبير) ، وأما ابن
الأشعث ، فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين
عبد الملك ، فأغاثك بأهل الشام ، وأنت في أضيق من القرن .
فأظلتك رماحهم ، وأنجاك كفاحهم ، ولولا ذلك لكنت أذل من
النقد ، وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته ،
والامتناع من بلوغ أوطاره ، من نسائه فان كن يلدن مثل ما
ولدت أمك ، فما أحقه بالأخذ عنك ، والقبول منك ، وإن كن
يلدن مثل أمير المؤمنين ، فانه غير قابل منك ، ولا مصغ الى
نصيحتك ، قاتل الله الشاعر ، وقد نظر اليك وسنان «غزاة»
الحرورية (سيدة من الخوارج) بين كتفيك حيث يقول :
أسد على وفي الحروب نعامة فزعاء كفرع من صغير الصافر
هلا برزت الى غزاة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
وصاحت أم البنين :

— أخرجنه عني . .

فمضى الحجاج الى الوليد من فوره ، فسأله عن حاله فقال :
— والله يا أمير المؤمنين ماسكتت حتى كان بطن الأرض أحب
الى من ظاهرها !

فأغرق الوليد ضحكا .

الفرسان الثلاثة

ظهر في عهد الوليد ثلاثة من القواد ، أعادوا للاسلام مجد
فتوحه الأولى أيام الراشدين وهم قتيبة بن مسلم الذي فتح

ما يسمى الان ازبكستان وخوض نهر سيمون ومنها بلاد بلخ
وسمرقند وبخارى وخوارزم ووصل الى حدود الصين وثنائهما
محمد بن القاسم القائد الشاب الذى فتح بلاد السند (جزء امن
باكستان الحالية) ، ثلثهما موسى بن نصير فاتح الاندلس .

فتوح قتيبة :

كان الحجاج وراء هذه الحملة الكبيرة شرق بحر قزوين ،
وكان يتابعها . . وكانت بخارى أعصى هذه المدن على قتيبة . .
فلما تأخر فتحها ، طلب الحجاج وصفا كاملا لموقعها ، فلما
جاءه أشار بالخطبة الحربية التى تتبع فى اقتحامها .

يروى الطبرى فى أحداث سنة ٩٠ للهجرة ، ان كتاب
الحجاج لما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان عن انصرافه عن
بخارى قبل الظفر بها وبملكها ، ويعرفه الموضع الذى ينبغى
له ان يأتى البلد ، عاد قتيبة واذا التركمان تجمعوا من كل
مكان ، والامداد توالى عليه من أقطار آسيا القريبة . وهم فى
عدد عظيم وعدة رهيبه . . يقول الطبرى :

. . وركبهم المشركون ، فحطموهم ، حتى دخلوا فى معسكر
قنيبة وجاوزوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل ، وبكين . .

ولكن المسلمين كروا من الجساحين كرة شديدة فرجع
التركمان ، واحتلوا هضبة قريبة . . فنادى قتيبة :

— من يزيلهم لنا من هذا الموضع ؟

فلم يقدم عليهم أحد والقبائل كلها وقوف

فمضى قتيبة الى بنى تميم فقال :

- يا بنى تميم .. يوم كأيامكم ..

فأخذ قائدهم اللواء بيده وصاح فى قومه : يا بنى تميم ..
اتسلموننى اليوم .. قالوا لا

وكان بين المسلمين وبين موقع التركمان الحصين نهر
.. فاندفعت الخيل فيه سابحة ، ومد خشب فوق النهر ،
وجازف بعض المحاربين ، واندفعوا يفاجئون عدوهم حتى حازوا
الموقع .

هكذا كان القتال الشديد فى تلك الايام ..
وكان الحجاج يقول : « بعثت قتيبة فتى غرا فما زدته
ذراعا الا زادنى باعا »

ومضت جيوش المسلمين الى أذربيجان تفتحها ثم انشنت
شرقا الى الصين ..

سفارة .. لملك الصين

يروى الطبرى عن فتح كشغر وغزو الصين :

« كتب ملك الصين الى قتيبة : ابعث الينا رجلا من أشراف
من معكم يخبرنا عنكم . ونسأله عن دينكم .. »

فانتخب قتيبة من عسكره اثنى عشر رجلا لهم جمال ،
وأجسام ، وألسن ، وشعور ، وبأس . وأمر لهم بعدة حسنة
من السلاح ، والمتاع الجيد والعطر ، وحملهم على خيول مطهمة

تقاد معهم . . وأوصاهم قتيبة بما يجب ان تدور حوله هذه
السفارة .

دخل الوفد على ملك الصين بعد رحلة طويلة وعنده عظماء
أهل مملكته ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه
فنهضوا . . .

قال الملك لمن حضره . . كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا
قوما ما هم الا نساء !!

فلما كان الغد انعقد المجلس ، وحضر وفد المسلمين ،
وعليهم عمائم الخز وكل ما هو طريف . وتكرر ما حدث في اليوم
السابق . وسأل ملك الصين رأى جلسائه في هذا الوفد
فقالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال . فلما كان اليوم
الثالث أرسل اليهم فشدوا عليهم سلاحهم ، ولبسوا وركبوا
خيولهم . . فنظر اليهم ملك الصين ، فرأى أمثال الجبال مقبلة .
فلما دنوا ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوهم مشحرين .

وفي اليوم الرابع ، استقبل الملك كبير هذا الوفد
« هبيرة » . . قال له :

- قد رأيتم عظيم ملكي ، وانه ليس أحد يمنعكم مني .
وانتم في بلادى . وانما أنتم بمنزلة البيضة في كفى . . .
وأنا سائلك عن أمر فان لم تصدقني قتلتكم . . قال :

- سل . . قال ملك الصين :

- لم صنعتما ما صنعتما من الزى في اليوم الاول والثاني

والثالث ؟ ••• رد هبييرة ••

— أما زيننا الاول فلباسنا فى أهالينا ، وريحنا عندهم وأما يومنا الثانى ، فاذا أتينا أمراءنا كنا كذلك • وأما يومنا الثالث ، فزيننا لعدونا ، فاذا هاجنا هيج وفزع ، كنا هكذا ••• قال الملك :

— ما أحسن ما دبرتم دهركم • فانصرفوا الى صاحبكم ، فقولوا له ينصرف ، فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، والا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه • قال له :

— كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله فى بلادك ، وآخرها فى منابت الزيتون • وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها ، وغزاك • وأما تخويقك ايانا بالقتل فان لنا أجالا ، اذا حضرت فأكرمها القتل • فلسنا نكرهه ولا نخافه •• قال الملك :

— فما الذى يرضى صاحبك ؟ قال هبييرة :
— انه قد حلف ألا ينصرف حتى يطاء أرضكم ويختتم ملوككم ويأخذ الجزية • قال الملك :

— فانا نخرجه من يمينه ، نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا ، فيطأه •• ونبعث ببعض أبنائنا فيختتمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاهما •

ودعا الملك بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحريير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن جوائزهم ، فساروا فقدموا بما بعث به ••

فقبل قتيبة الجزية ، وختم الفلمسان ورددتم ، ووطئ
الشراب .

محمد بن القاسم وموسى بن نصير :

هذا طرف من أنباء المغازى فى أيام الوليد ، وكانت لجيوشه
جولات موفقة فى حرب الروم لا تقل عن توفيقه فى شرق
آسيا . .

أما توفيقه الأكبر فكان فى فتح الأندلس وهذا ما أفردنا له
كتابنا عن طارق بن زياد ، مع تفصيل للفتوح فى أيام الوليد
وسليمان .

عهد من الرخاء

وعلى الرغم مما تحتاجه الحروب الخارجية من جهد ليس بعده
جهد ، إلا أن فتوحها تدر كثيرا من الخير المادى ، وكثيرا من الخير
المعنوى . .

أما الخير المادى فيتمثل فى الغنائم

أما معنويات هذه الحروب ، فإنها توحد جهود الأمة ، وتعبي
قواها الروحية ، وتنفي عنها الخلافات .

لقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب ، أن الوليد « كان
جبارا عنيدا ، ظلوما غشوما » .

ولكن لم يرد فى سيرته التى رواها شيئا من هذا ، وإنما هى
الحملة الشاملة على بنى أمية وخلفائهم جميعا . باستثناء عمر

ابن عبد العزيز - فالتاريخ كله ألف في عهد العباسيين أعدى أعداء بني أمية .

انما ذكر المسعودي شيئاً آخر . . قال .

« وفي سنة تسع وثمانين ابتداء الوليد بناء المسجد الجامع بدمشق ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة . فانفق عليهما الاموال الجليلة . وكان المتولى للنفقة على ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى »

واستطرد المسعودي في ذكر قصة بناء المسجد قائلاً :
لما ابتداء الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوح من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب ، فلم يقدروا على قراءته ، فوجه به الى وهب بن منبه . فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليهما السلام . فقرأه فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . .
« يا ابن آدم ، لو عاينت ما بقى من يسير أجلك لزهدت فيما بقى من طول أملك . وقصرت عن رغبتك وحيالك . وانما تلقى ندمك اذا زلت بك قدمك . وأسلمك أهلك ، وانصرف عنك الحبيب ، وودعك القريب . ثم صرت تدعى فلا تجيب . فلا أنت الى أهلك عائد ، ولا فى عملك زائد ، فاغتتم الحياة قبل الموت ، والقوة قبل البؤساء وقبل ان يؤخذ منك بالكظم ، ويحال بينك وبين العمل » .

فأمر الوليد ان يكتب بالذهب على اللازورد فى حائط المسجد : ربنا الله لا نعبد الا الله . أمر ببناء هذا المسجد ،

وهدم الكنيسة التي كانت فيه ، عبد الله الوليد أمير المؤمنين في
ذي الحجة سنة سبع وثمانين .

يقول المسعودي : وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد
دمشق الى وقتنا هذا . وهو سنة ٣٣٢ هـ .

ومن ماثر الوليد ، انه كان شديد العطف على الفقراء والبر
بهم حتى كان أول خليفة في الاسلام خصص للمجذومين
أعطيات تمنعهم من السؤال . وخصص لكل مقعد خادما يدفع
أجره من خزانة الدولة ، وقائد لكل ضرير يسهر على راحته .

الاقبال على الاسلام

ويبدو أن المسيحية كانت منتشرة في بلاد فارس وما يليها
شمالا ، وفي المناطق التي حارب فيها قتيبة بن مسلم ، وأحرز
انتصاراته الباهرة .

روى توماس ارنولد في كتابه : الدعوة الى الاسلام « ان
المسيحيين في بداية احتلال العرب لبلادهم قد انتقلوا الى
الاسلام في جموع هائلة . ويمكن أن نكون فكرة ما عن مدى
ذلك التحول المبكر الى الاسلام في العراق مثلا ، اذا علمنا أن
ايراد الضرائب في عهد عمر كان يتراوح بين ١٠٠ مليون
و ١٢٠ مليون درهم . على حين هبط في عهد عبد الملك بن
مروان ، أي بعد خمسين عاما الى أربعين مليون درهم . وبينما
يعزى هذا التدهور في الخراج الى حد كبير ، الى التخريب الذي
كان نتيجة الحروب والفتوحات . فانه ما يزال ينسب أولا

وقبل كل شيء الى هذه الحقيقة ، وهى ان جموعا غفيرة من
الاهلين كانوا قد دانوا بالاسلام ، ومن ثم لم يطالبوا بدفع
ضريبة الرأس » .

وينقل هذا المصدر نص رسالة كتبها البطريرك النسطورى
يشوع باف الثالث الى رئيس أساقفة فارس جاء فيها : « أين
أبناءؤك أيها الأب الذى تكل أبناءه ؟ أين أهل مرد العظماء ،
الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفا ، ولا نارا ولا تعذيبا ،
ولم يسيطر على نفوسهم الا حب التجارة والاخذ منها ينصيب . .
لم يتقدم واحد منهم ليهب نفسه ضحية للرب ، ويريق دماءه
فى سبيل الدين . . . أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس
جميعها . . ان العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا ،
يشاهدون ما أنتم عليه ، وهم بينكم . . . ومع ذلك فهم
لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس يعطفون على ديننا ،
ويكرمون قسسنا ، وقديسى الرب ، ويجودون بالفضل على
الكنائس والادبار . . . »

ويستطرد صاحب الرسالة قائلا :

« لماذا اذن هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل
العرب ؟ ولماذا حدث ذلك أيضا فى وقت لم يرغمهم فيه العرب
كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم ، على ترك دينهم ، بل
تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمنا مصونا ، اذا هم اقتصروا على
أداء جزء من تجارتهم اليوم ، (يقصد الجزية) . . . »

هذه الوثيقة النادرة تفسر لنا ما حدث بعد ذلك فى عهد

عمر بن عبد العزيز من الإقبال الهائل على دخول الشعوب الجديدة في الإسلام من كافة الأديان والمذاهب .

والجزية - كما نعلم - كانت أشبه بضريبة الإعفاء من الخدمة العسكرية ، وكانت على الموسرين ٤٨ درهما في السنة ، وعلى متوسطي الدخل ٢٤ درهما ، وعلى العمال ١٢ درهما . وكانت هذه الضريبة تجبى من القادرين على الخدمة العسكرية ، فلا تحصل من الصغار أو النساء أو ذوي العاهات أو الطاعنين في السن أو المرضى حتى يشفوا . كما أعفى منها الرهبان ورجال الدين .

إن طابع العنف في الحركات العسكرية أثناء الغزو ، والعنف في قمع الشورات ، يقابله عدل وانصاف لكافة الرعايا المسلمين . . وفي ظل المساواة التامة والحرية الفردية ، كان ينمو هذا التعاطف بين دين الفاتحين وأهل البلاد المفتوحة . . .

وهذا هو الذي أزعج القس القديم ، ولم يجد له تفسيراً في وقته . . .

رحاء سليمان ..!

كان الوليد قد فكر في عزل أخيه سليمان من ولاية العهد ،
على أن يبائع الناس لابنه يلي الامر من بعده . .
وكاتب امراءه في الامصار ، فوافقه منهم الحجاج وقتيبة
بن مسلم .

ولكن الاجل لم يمهلهم فمات ، وبيعة أخيه سليمان بن عبد
الملك بن مروان في أعناق الناس .
وكان قتيبة واليا على خراسان ، وجيوشه ماضية على
وجهها في الفتوح التي ذكرناها .

وكتب قتيبة الى سليمان كتابا يهنئه بالخلافة ويعزّيه في
الوليد ويذكر له بلاءه وطاعته لأبيه وأخيه من بعده . وانه له
على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة ان لم يعزله عن
خراسان .

وكانت بين قتيبة ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة عداوة
شديدة . وخشى ان يعزله سليمان عن خراسان ويولى خصمه .
ولذا بعث مع الرسول تهديدا مكتوبا ان هو عزله ، ليخلعن
الخليفة كما تخلع النمل وليملأن عليه الأرض خيلا ورجالا .
فلما تأكد الرسول ان خلع صاحبه مؤكدا وان خصمه
سيتولى مكانه دفع اليه بكتاب القطيعة . .

وثارت فتنة في معسكر قتيبة . وعملت الدسياسة عملها ،
وطمع كثيرون في جائزة ينالونها اذا هم قتلوه . . وقد كان ،
وقتل قتيبة ومعه اخوته عبد الرحمن وعبد الله وصالح وحصين

وعبد الكريم بنو مسلم ، وقتل ابنه كثير بن قتيبة . كما قتل
ناس من أهل بيته . . . وصلبهم رجال الخليفة سليمان .
وهكذا انتهت حياة هذا القائد الباسل ، الذي يعد من أعظم
قواد المسلمين ، والذي يمكن أن يوضع في صف واحد مع
خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص . .
لم يشفع له ما قدمه من خير للدولة وللمسلمين . . فان
السياسة لا ترحم .

وحملت رؤوس المصلوبين من آل قتيبة الى الخليفة سليمان .
وعندما تسمع أهل خراسان واذربيجان وأذربكستان بمصرع
قتيبة على أيدي قومه ، قال واحد من قوادهم :
« يا معشر العرب . . قتلتم قتيبة . . والله لو كان قتيبة
منا فمات فينا ، جعلناه في تابوت ، فكنا نستفتح به اذا غزونا
. . وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة . . »
ولم يدرك سليمان الحجاج ، والا كان له نفس المصير . .
ولكن سليمان استقدم يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ،
وهو مكبل بالحديد ، فلما رآه ازدراه وقال له :
- ما رأيت كاليوم قط ، لعن الله رجلا أجرك رسنه ،
وحكمك في أمره (يقصد الحجاج) . . فرد الكاتب .
- لا تفعل يا أمير المؤمنين . فانك رأيتني والامر عني مدبر ،
وعليك مقبل ، ولو رأيتني والامر مقبل على لاستعظمت مني
ما استصغرت . . ولاستجالات مني ما استحقرت . قال :
- صدقت فأجلس لا أم لك .

فلما جلس الرجل قال له سليمان :
- عزمتم عليك لتخبرني عن الحجاج ما ظنك به . اتراه

يهوى بعد في جهنم أم قد استقر فيها . . قال الرجل :
 - يا أمير المؤمنين . . لا تقل هذا في الحجاج ، فقد بذل لكم
 نعمة . وأحقن دونكم دمه . وأمن وليكم . وأخاف عدوكم .
 وأنه يوم القيامة لعن يمين أبيك عبد الملك ويسار ، أخيك
 الوليد ، فاجعله حيث شئت .

فصاح سليمان :

- أخرج عنى إلى لعنة الله

ثم التفت الخليفة سليمان إلى جلساته فقال :

- قبحه الله !! ما كان أحسن ترتيبه لنفسه ولصاحبه . ولقد

أحسن المكافأة . . أطلقوا سبيله .

وكذلك نكل سليمان بالقائد الشاب محمد بن القاسم الذي
 فتح السند . . فقد عزله ، وأمر به فكبل في الحديد ، وحمل
 إلى العراق ، حيث زج به في سجن واسط ، وحل به أشد العذاب
 وقتل بعد ذلك . .

وما تهمة هذا القائد الشجاع إلا أنه كان ابن أخت الحجاج .

وسنرى في كتابنا عن طارق بن زياد ما فعل سليمان

بموسى بن نصير . .

والحسنة التي تذكر لسليمان بن عبد الملك أنه حاول فتح

القسطنطينية وفي هذا يقول كتاب تاريخ الاسلام السياسى .

كان الوليد قد شرع في إرسال حملة إلى القسطنطينية

للاستيلاء عليها ، لكنه توفي قبل قيام هذه الحملة . فلما ولى

أخوه سليمان الخلافة ، وجه هذه الحملة ، ورابط في مرج

دايق شمالى الشام . وكان على الدولة البيزنطية الامبراطور

انستاسيوس الثانى ، فدافع عن حاضره ملكة بكل ما أوتى من قوة وأرسل حملة الى الثغور الشامية لتحويل دون وصول الاقوات والمؤن الى جند المسلمين ، ولكنها عادت بالفشل .

وقد انضم الى جيش المسلمين فى آسيا الصغرى رجل من البيزنطيين كان يطمع فى الملك ، ويدعى ليو الاشورى ، اتحد مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان أمير هذه الحملة . ومن ثم أخذ جند المسلمين يستولون على بلاد آسيا الصغرى ، مدينة تلو مدينة حتى عبروا البحر ووصلوا الى أسوار القسطنطينية وتبعهم الاسطول الاسلامى من الثغور الشامية والمصرية . فاشتراك فى حصار حاضرة البيزنطيين . غير أن « ليو » هذا خرج على صفوف المسلمين ، وأعلن نفسه إمبراطورا بدلا من انستاسيوس الذى كان مكروها عند الأهلى .

واشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر . وعاجمها أسطولهم . . فعمل « ليو » على استدراج سفن المسلمين . ففتكت بها النار الاغريقية ، ونفدت أقواتهم ، فتحملوا آلام الجوع والمرض ، حتى فنى أكثرهم بعد أن دمرت أكثر سفنهم ، وعادت الحملة تجر ذيل الفشل ، كما فشلت الحملة التى سبقتها فى عهد معاوية . .

والنار الاغريقية التى ورد ذكرها هنا ، هى سائل كيماوى يعتمد على مادة النفط ، يلقى فى الماء وتشتعل فيه النار فيحول سطح البحر الى ما يشبه الاتون المتقد . .

ومن عجب ، أن الالمان لجأوا الى هذا الاسلوب لعرقلة انسحاب الانجليز من دنكرك فى الحرب العالمية الماضية . فقد

كانت طائراتهم تفرغ على الماء حمولتها من البنزين والكيروسين وتطلق عليها الرصاص المشتعل فيتحول سطح البحر الى بحيرة من الالهب . . ولا نجاة من هذا الحصار الناري الا بسرعة الحركة . . ولم تكن سرعة الحركة متاحة فى المراكب الشراعية القديمة ، ولذا دمر الاسطول الاسلامى فى هذه الموقعة . .

وهكذا نراها لسليمان حسنة غير كاملة . . ان مجرد النية فى فتح القسطنطينية هو ما يحسب له . ولكن كانت تنقصه كفاءة القيادة فى مثل هذه المهمة .

وأين تأتى القيادة من رجل نكل بكل من خدموا دولتهم لمجرد أنهم استجابوا لرغبة الخليفة الذى سبقه ، والذى كان ولى أمرهم . . وكان نكاله شديدا بالغ القسوة .

ولكن هناك ماثرة تذكر لسليمان لا شك فيها ، وهى ما سوف تحدثنا عنه الصفحات التالية . .

انها السرعة التى انقضى بها حكم سليمان ، اذ لم يمكث أكثر من عامين ، وترك الحكم - لا لأحد أولاده - ولكن للخليفة - التقي النقى عمر بن العزيز . .